

- ٤٦ -

مناطق الهند وفارس شرقا حتى أقصى بلاد الشام شمالا ، وإلى المحيط الأطلسي غربا ، أى أنها تكونت من حضارات عديدة وشعوب عديدة ولغات عديدة وتقاليد عديدة أيضا ، وكان هذا الاتساع مصدر ثراء وترف ، لكنه أيضا كان مصدر صور ومشاهد وعادات جديدة ، كما كان كذلك مصدر كثير من القلق والفتن التي أزعجت الدولة والخلفاء كثيرا ، وحيث كان عليها من هذه الزاوية أن تدفع الثمن من أمنها واستقرارها ، لاسيما وقد استعانت فى القضاء على الثورة ضدها ، بغير العنصر العربى .

كان الصبى يكبر ، وتتأصل أمام عينيه وعلى مسمعه هذه الصور كلها ، وتزداد حجما واتساعا ووقعا واثرا وتأثيرا . . . وإذا كنا هنا لم نتوقف عند الجانب الثقافى لهذه المشاهد كلها فما ذلك الا لأننا سنعود الى رؤيته وتتبعه فى مواطن أخرى ، أو فى أكثر من موطن آخر . . .

المهم ، رجل كانت هذه نشأته ، وتلك هى الصور والمشاهد التي وقعت أمام عينيه ، فراحنا تتابعانها بحس الأديب ، وفكر الملتقط الماهر بل راحت نفسه وراح عقله وراحت عينه وراح فكره ، جميعها تنقلها وتبقيها فى الذاكرة ، أو تخلط بين أطرافها ، وتجمع بين خيوطها ، لتكون منها صورا ومشاهد أخرى ، معظمها واقعى عقلى ، لأنه يقوم على الرؤية والمشاهدة والتتبع والالتقاط ، فقويت بذلك عنده حاسة الصحفى والأديب معا . . . فها هى الأحداث أمامه ، بعضها واضح وبعضها الآخر غامض ، بل وشديد الغموض أيضا ، وبعضها معروف ، ومتابع ، وبعضها الآخر غير معروف يحتاج هو أو تحتاج معرفته الى بحث وراء بعض خيوطه أو لاستجلاء بعض معانيه ، أو من أجل مزيد من الشرح والتفسير لها ، وبعضها كذلك ، يحتاج الى سفر طويل أو قصير ، وإلى لقاء مع أكثر من شخص ، بعضهم يقيم بالمدينة ، وبعضهم يضرب خيمته بالبانابة ، وقد يحتاج الأمر الى تأكيد وتدقيق ، ليكون ذلك فى « دكاكين الوراقين » نفسها . . . وهكذا ، وما الى ذلك كله ، وغير ذلك ، كله . . . مما كان موضوع نتاج الرجل ، ومجال فكره ، بل ونتاجه هو نفسه وإذا كنا سوف نناقش أو نتعرض لهذه الأمور كلها مرة أخرى عند تناولنا للمجاhez « مصور عصره » وليس صورته ، فإنا نضيف هنا . . .

ان هذه الأحداث كلها ، هذا العصر بما فيه ومن فيه قد تدخل فى تشكيل « صورة الزجل » ورسمها ولونها الى حد كبير جدا ، ومن ثم فقد